

احياء المولد النبوى الكريم

بصمه رسوم ومناظره في مصر الاسلامية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وتقاليد معينة تختلف باختلاف أهميتها الدينية أو القومية . وقد بلغت في ظل الدولة الفاطمية من الكثرة والانتظام ما لم تبلغه في أية دولة اسلامية أخرى . ذلك أن الخلافة الفاطمية شرعت لنفسها ، الى جانب الأعياد الدينية المأثورة ، أعياداً خاصة بها وبدعوتها ومذهبها الديني ، فقررت أن تحتفل الى جانب المولد النبوى ، بمولد خمسة أخرى هي مولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد زوجته السيدة فاطمة الزهراء التي ينتسب الفاطميون اليها ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ابني علي ، ومولد الخليفة الفاطمي القائم في الملك ؛ هذا الى مواسم وأعياد أخرى كيوم عاشوراء (عاشر المحرم) الذي قتل فيه الحسين ، وليلة أول رجب ونصفه وليلة أول شعبان ونصفه وهي ليالي الوقود الشهيرة ؛ ثم كانت هنالك أعياد قومية أخرى كيوم فتح الخليج ، ويوم الميلاد النصراني ويوم النوروز ، ويوم الفطاس ؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية لم تنس أن تشمل رعاياها النصراني برعايتها وتسامحها في إحياء هذه الأعياد القومية القديمة بصفة رحيمة ، وفي أن تسبغ عليها من بهجة والبهاء ما يسبغ على الأعياد الأخرى .

وكان المولد النبوى الكريم في مقدمة الأعياد الإسلامية المقدسة ، تحتفل به الدولة طبق رسوم معينة ، ويحتفل به الشعب في فيض من الضجيج والمرح . وقد وصف لنا مؤرخو الدولة الفاطمية المعاصرين ، كابن زولاق ، والمسبحي ، وابن الطوير ، وابن المأمون ، طرفاً من هذه المناظر والرسوم الشائقة ؛ وخلاصة هذه الرسوم ، هو أنه إذا حل المولد النبوى ، يطلق من الخزينة مبلغ كبير يرسم الصدقات ، ويطلق من دار الفطرة أربعمون صينية فطرة ومن الخزائن سكر ولوز وعسل وزيت يرسم خدمة المزارات التي بها - حسب قوتهم - بعض أعضاء آل البيت ، ويوزع من الخلوى بضع مائة ألف رطل ، وكذا من الخبز كمية كبيرة . وفي يوم المولد النبوى - الثاني عشر من ربيع الأول - يخرج الخليفة في موكبه ليجلس في المنطرة الخلايفية المجاورة للمشهد الحسيني ؛ وهي أقرب المناظر الى القصر ؛ وتكون دار الفطرة قد أعدت ثلاثمائة صينية مجهزة بالخلوى اليابسة لتفرق في كبار الموظفين والقضاة ، وفي مقدمتهم قاضي القضاة وداعي النعاة ، وقراء الحضرة وخطباء المساجد الجامعة . وعند الظهر يركب قاضي

كانت ليلة الثاني عشر من ربيع الأول - ليلة المولد النبوى الكريم - دائماً من المواسم والأعياد المشهودة في جميع الأمم الإسلامية ؛ وما زال مولد النبي العربي من الذكريات الخالدة في المجتمع الاسلامي ؛ ولكن الاحتفال بذلك الحادث العظيم في تاريخ الانسانية كان يقتصر في العصور الخالية ، أيام عز الاسلام ومجده ، بضروب من الجلال والبهاء والبذخ ، ذهبت بها حوادث الزمن وتقلباته ، وما انتهت اليه الأمم الإسلامية من الاضمحلال والتأخر . وقد بدأ هذا الاحتفال المقدس في عصر الاسلام الأول بسيطاً متواضعاً ، كباقي اللواسب والاحتفالات الدينية ، فلما بلغت الخلافة ما بلغت من العظمة والبهاء ، ظهرت فخامة الملك وروعته في الأعياد والحفلات الرسمية ، وجرت الشعوب على سنة ملوكها وأمرائها في هذه المواسم من الظهور والبذخ . وكان شأن مصر الإسلامية في ذلك شأن باقي الولايات الإسلامية في عصر الخلافة الأول من بساطة في الرسوم والمظاهر ؛ فلما استحوطت مصر من ولاية خلافية الى دولة مستقلة في عهد بني طولون وبني الأخشيد وقامت فيها قصور ملوكية باذخة ، ظهر أثر هذا الانقلاب في رسوم الدولة ومظاهرها العامة ، وهدت المواسم والاحتفالات الدينية حوادث عامة تخيمها الشعب ، كما تخيمها الحكومة في كثير من الرواق والهجة والخيور .

وقد بلغت هذه المظاهر والرسوم الفخمة ذروة البهاء والروعة في عهد الدولة الفاطمية ، وكانت هذه الدولة القوية الشائخة تتخذ من المواسم والأعياد الدينية والقومية فرصاً للظهور في أبداع مظاهر القوة والترف ، وتتمتع الشعب في هذه الأيام المشهودة بوافر بنظها وعطائها ؛ فكان الشعب يستقبل هذه المواسم باهتمام وحماسة ويكثر فيها من الاحتشاد والاتفاق والروح ، تشجعه الدولة على ذلك وتحثه بقدرتها ومثلها . وكان للاحتفال بهذه المواسم رسوم

كما ذوى كل شيء في الحياة العامة للمصرية ، وغابت عليها التقاليد السخيفة ، ولم يبق لها شيء من تلك الروعة التي كانت تهز قلوب المسلمين ، وتبعث اليها الجلال والخشوع .

ويصف لنا الجبرتي طرفاً مما كانت عليه رسوم الاحتفال بالولاد النبوي في أواخر الحكم التركي وأيام الحملة الفرنسية ، فيقول مثلاً في وصف احتفال سنة ١٢١٤ هـ ما يأتي :

« وفي يوم الثلاثاء حادى عشره (أى حادى عشر ربيع الأول) عمل المولود النبوي بالأزبكية ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتمشوا عنده وضربوا ببركة الأزبكية مدافع وعملوا حرافة وسواربخ ونادوا في ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً وإسراج قناديل واصطناع مهرجان » .

ويقول في وصف احتفال سنة ١٢١٦ هـ ما يأتي :

« وفيه (أى ربيع الأول) نودى بتزيين الأسواق من القند تعظيماً ليوم المولود النبوي الشريف فلما أصبح الأربعماء كررت المتأداة والأمر بالكف والنس والرش فحصل الاعتناء وبذل الناس جهودهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزرديخان والتفاصيل الهندية مع تخوفهم من العسكر . وركب المشار اليه عصر ذلك اليوم وشق المدينة وشاهد الشوارع . وعند المساء أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد وحصل الجمع بتكية الكاشي على العادة ، وتردد الناس ليلاً للفرجة وعملوا مناني ومزامير في عدة جهات ، وقراءة القرآن ، ونجحت الصغار في الأسواق وعم ذلك سائر أخطاط المدينة القاهرة ، ومصر وبولاق . وكان من المعتاد القديم ألا يمتنى بذلك إلا بجهة الأزبكية حيث سكن الشيخ البكرى لأن عمل المولود من وظائفه وبولاق فقط »

وفي وصف احتفال سنة ١٢١٧ هـ ما يأتي :

« فيه (ربيع الأول) شرعوا في عمل المولود النبوي وعملوا صوارى ووقدة قبالة بيت الباشا وبيت الدقتردار والشيخ البكرى ونصبوا خياماً في وسط البركة ونودي في يوم الخميس بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسهر بالليل ثلاث ليال ، أولها صبح يوم الجمعة وآخرها الأحد ليلة المولود الشريف فكان ذلك » (١)

(١) الجبرتي : (طبع مصر) ج ٣ ص ٨١ و ٢٠١ و ٢٣٥ .

القضاة في موكب من عند القصر ، ويحلى ميدان القصر من الجماهير ، ويترك للجمهور السلوك من ناحية أو اثنين ، ويقدم والى القاهرة بالمحافظة على النظام مع رجاله ؛ ويصل موكب قاضى القضاة من ناحية ، ويصل موكب الحاجب الكبير من ناحية أخرى إلى ساحة المنطرة الخلافية وقد فرشت بالرمل ؛ ويقف الجميع في الساحة متشوقين لرؤية الخليفة . وبعد نحو ساعة يطل الخليفة من إحدى الطاقات وعلى رأسه للتنديل الخلافى ، ومن ورائه بعض الأستاذين المحنكين (١) ويطل أحد الأستاذة من طاقة أخرى ويقول : « أمير المؤمنين يد عليكم السلام » ويسلم على الحضور ؛ ثم يبدأ قراء الحضرة (٢) بالقراءة وقوفاً ، ووجوههم إلى الجمهور ، ويظهرهم إلى المنطرة ؛ ثم يلقى خطباء المساجد الجامعة خطبهم ، فيبدأ خطيب الجامع الحاكمى ، ثم خطيب الجامع الأزهر ، ثم خطيب الجامع الأحمر ؛ وتدور الخطبة حول المولود النبوي وقديسيته وفضله ؛ فإذا انتهت الخطابة ، أخرج الأستاذ رأسه من الطاقة ويده في كفه ورد على الجماعة السلام ، ثم تفلق الطاقان . ويحتجب الخليفة والأستاذ ، ويتبعى الاحتفال ، وينفض الناس (٣)

هذا ، وإلى جانب الاحتفال الرسمي ، يحتفل الشعب في كل مكان بإقامة المآدب الخاصة ليلة المولود النبوي ، وفي مساء يوم الولد ، وتسطع القاهرة في الليل بالأنوار الباهرة ، وتنص الساحات والدروب بالجماهير المحتشدة ، وتكثر النفقة والنزهة ، وتقام أنواع الملاهي والمطامير العامة ، وتسبح السفن في النيل والتخليج محملة بالمتزهمين ، ويكثر البر بالفقراء والمساكين .

وكان الاحتفال بالمولود النبوي في دول السلاطين المختلفة دائماً من الأعياد الرسمية ، تحييه الحكومة والشعب ، ويشهده السلاطين أحياناً ؛ ولكنه لم يبلغ في ظل هذه الدول ما كان يبلغه من الفخامة والبهاء في ظل الدولة الفاطمية .

وفي عصر الحكم التركي ، ذوى بهاء المواسم والأعياد الدينية

(١) الأستاذون المحنكون جماعة من كبار موفدى القصر اختصوا بالدولة الفاطمية ، وعدم نسيه ، وشبه متولى التاج الذى يقوم بوضعه على رأس الخليفة ، وصاحب المجلس الذى يتولى تنظيم المجالس الخلافية الرسمية ، وصاحب الرسالة ، وهو الوسيط بين الخليفة والوزراء والحجاب ، ومدبر القصور ، وحامل الدواة ، الخ . . . (ربيع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) (٢) قراء الحضرة ثم قراء القصر المحضيين ، وعدم نسيه قراء (٣) رابع في تفاصيل هذه الرسوم — خطط القرزى (مصر) ج ٢ ص ٣٩٢ — ٣٩٤ ؛ و صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .